

من عيون الأدب الإسلامي

دراسة في شعر محمود مفلح

د / محمد علي الهاشمي *

أدب

تَأَلَّقْتُ في سماء الأدب الإسلامي المعاصر نجوم من الشعراء، تفتّحت قرائحهم في أجواء الصحوة الإسلامية، ونهلوا من مناهلها العذبة الصافية، واستضاءوا بمشكاة الوحي وهُدِّي النبوة، فجاء شعرهم أصيلاً في منطلقاته، غنياً ثراً في مضمونه، حياً متدفقاً بالعاطفة النبيلة الصادقة والفن الرفيع.

ذلك أن الفن العالي لا ينسرب إلا من القلب المرفه الشاعر، الذي يهتز طرباً للسرّاء، ويرتجف ألماً من الضراء، ويعكس ما يعتلج فيه من مشاعر الفرح والترح، واللذة والألم، والارتياح والانقباض. وشعر النجوم من الإسلاميين في معظمه من هذا النمط من الفن.

ومن هؤلاء الشعراء المتألّقين في ساحة الشعر الإسلامي الرحبية الشاعر محمود مفلح. فقد أتيح لي أن أطلع على طائفة صالحة من شعره في دواوينه الثلاثة: إنها الصحوة، وشموخاً أيتها المآذن، والراية، وأبّت من هذه الإطلالة السريعة على تلك الدواوين بشعور واضح عميق بأن الشاعر محمود مفلح لم يقل الشعر تزجية للوقت وتسلية، ولا مكاءً وتَصْدِيقاً. وإنما انساب الشعر من نفسه المفعمة بالمشاعر النبيلة، ومن فكره المترع بالمثل العليا، والمبادئ القويمية، ومن تصوّره الإسلامي الراشد الواعي للكون والحياة والإنسان، ومن فهمه العميق لرسالة الشعر.

وقد صور فهمه للشعر، وتصوره للشاعر ورسالته في الحياة، في غير موضع من دواوينه، فقال^(١):

وقصائدٌ مثل العرائس، مهزّرها	غالب، وأخرى ليس فيها مطمَع
فوق النجوم تعيش بعض قصائد	والبعض في عَفْنِ القمامة يقبع
وأجلهن قصيدة عريضة	فيها من الإسلام شمس تسطع
تأبى على أهل الغرور غرورهم	وتشدد من أزر الضعيف وتمنع
وتثور في وجه الطغاة وتنبري	للظالمين، تؤزّهم وتزعزع
وإذا أصاب المسلمين مصيبة	فهي التي من أجلهم تتوجّع
وهي التي تأسو الجراح بليهم	والفجر من جرح القصيدة يطلع
وهي التي تنهل في صحرائهم	مطراً، وتحفر في الصخور وتزرع
حسب القصائد أنها لا تنحني	إلا لجبار السماء وتركع

إنها المقارنة التي تبرز البون شاسعاً بين الشعر العزيز الحرّ، والشعر الذليل الرخيص. فقصائد الأول كالعرائس تمس فوق النجوم، وقصائد الثاني تقبع في عفن القمامة. وأجل القصائد وأجدرها بالبقاء والخلود هي القصائد الحرة الصادقة بالحق، الثائرة في وجه الطغاة، الآسية جراح المسلمين. وهي المزن المتهون المغدق، الذي يهب الصحراء القاحلة، والصخور الصلدة، الحياة والخصب والنماء. وهي فوق ذلك كله، العزيزة التي لا تنحني إلا لجبار السهوات والأرض.

ولقد ألزم الشاعر نفسه بقول هذا النمط من الشعر، وحرص على أن يقدم شعره في مستهل دواوينه، شارحاً منهجه في صوغ الكلمة وصناعة القريض. فهو لا يقول الشعر جرياً وراء منفعة، ولا يعبت بحرمة الكلمة؛ فيصوغ شعراً مزيفاً رخيصاً، يحرق فيه البخور للسادة الكبراء، ويصفق مع المصنفين^(٢):

أنا لست أعبتُ بالكتابة

أنا لست أركب موجة الشعر الرخيص

(*) أستاذ الأدب العربي في كلية الآداب للبنات بالرياض، من مؤلفاته: جبهة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (تحقيق)، عدي بن زيد العبادي الشاعر المبتكر، طرفة بن العبد حياته وشعره.

ولا طرقتُ عليه بابَه

أنا لم أصفّق للذين تورّمت أوداجُهم

في موسم العرب، الخطابة

أنا لم أمت فيه صباية

جرحي الذي زرعوه ليس هو الربابة

قلبي الذي طعنوه في ليل الهزيمة كيف ينسى ما أصابه

وهو ليس كشعراء الملاحى والكأس المترعة، وليس من المنافقين المتاجرين الذين ينتفشون في إنشاد الشعر المزيف المأجور، رافعين عقيرتهم به، صائحين كصياح الديكة فوق الدمن^(٣).

أنا لا أفتش في مقاهي الليل عن لغة الوطن

أنا لا أسافر في تخوم الكأس كي أنسى الشجن

أنا لا أقاتل في الخفاء ولا أسالم في العلن

أنا لا أتاجر بالشهادة .. لا أتاجر بالحجارة ..

لا أتاجر بالكفن

أنا لا أصبح كما ديوك الشعر من فوق الدمن

وإنه ليعرف طريقه، وإنه لمصمم على السير فيه، مهما كلّفه ذلك من تضحيات، ومهما جرّ عليه من متاعب وأهوال^(٤).

أنا منذ أطلقت العنان لأحرفي

وبدأت أطلق بالقلم

.. أدركت أن الدرب مذابة

وأن الحرف مسغبة

وأنى إن أمت .. سأموت من أجل القيم

ولأجل هذا صُنفت في الشكوك .. ووُزعت في التهم

من هذه الرؤية الراشدة لرسالة الشاعر انطلق شاعرنا محمود مفلح يفتق أكام المعاني، ويصوغ الموضوعات الساخنة التي تلامس كوامن المشاعر في نفوس جيل الصحو الإسلامية، وتفتح عينيه على الواقع المر الذي تعيشه أمة الإسلام، وتبين له الفرق الشاسع الكبير بين ما أراد الله لهذه الأمة من عزة وسيادة ومنعة وسودد، وما رضيت به لنفسها من ذل وتبعية وضعف وتخلف، وترسم له طريق الخلاص والتحرر من ذلك الواقع المزري المهين. ومن هذه الموضوعات الساخنة:

١ - بين الماضي المجيد والحاضر المقيت:

لقد صور الشاعر محمود مفلح ماضي أمة الإسلام الشامخ، يوم كانت في علياء مجدها، وصوّر حاضرها المهين، وهي في حضيض ارتكاسها وتخلفها، وألح على هذا المعنى في كثير من قصائده، مستثيراً هم المسلمين، ليخلعوا عنهم نير التخلف، ويستعيدوا ذلك المجد العريق المؤثّل^(٥):

املعباً للنجوم كانت روايتنا وقاماتنا من النجم أعلى

نحن من رصع الزمان شموساً وأحال الرمال ماء وظلاً

إن يكن أمسنا البعيد هزيراً فلقد عزّ أن يرى اليوم شبلًا

قصة نحن في عشاء المحاسيب، دعاء على الوليمة يثلى

فيا للمفارقة الهائلة بين الأمس واليوم، إذ أصبحت الأمم تتداعى علينا كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، كما في الحديث الشريف المشهور.

ونقف مع الشاعر في قصيدته (إنهم فتية)، فإذا نحن أمام دفقة شعورية عارمة، يستهل بها قصيدته، معبراً عن ألمه المبرح من تخلف العرب وبلادة حسهم^(٦):



محمود مفلح



الرؤية الواضحة للشاعر جعلته

يصوغ موضوعات تلامس كوامن

المشاعر في جيل الصحوة الإسلامية

بأي لون أخط الحرف يا عرب وهل تبقى دم في القلب ينسكب

ماذا أقول لمن قالوا وما فعلوا ماذا أقول لمن هموا وما وثبوا

إنه لتساؤل مريب، ينبع من نفس متأججة بشعور الحسرة والألم، يتبعه تساؤل آخر عن جذورنا وماضينا وتراثنا وتاريخنا^(٧):

أين الجذور التي غاصت بثرتنا وأين آفاقنا والبدر والشهب

لقد غدونا كبعض الزاحفات فلا تشكو البطون ولا الأيدي ولا الركب

سيف العدالة ما أهوى به عمر ولا اطمأنت إلى فرسانها حلب

ويمد طرفه إلى الشعوب الحية المتحررة، ثم يرجع به إلى واقعنا الأليم، وتبعيتنا الذليلة، وتخططنا في داجي ليلها البهيم^(٨):

كل الشعوب لها وزن وقافية لها شرع، لها سم، لها أرب

ونحن مثل هشيم ضل وجهته فحيثما قلبته الريح ينقلب

هكذا يُشرق، إن الشرق كعبته وذا يُغرب .. إلا أنه الذئب

وكلما قلت هل الفجر يا وطني تعاظم الأسودان: الليل والرهب

وقد عجبنا لقول «إننا عرب» وواقع الحال ينفي «أننا عرب»

ثم يصور مخازي العرب في كلمات متتابعات سريعة:

الزار والعار والأوتار تعرفنا والعرف والقصف والإذبار والهرب

ويحس أنه قسا على أمته، فيعتذر إليها مسوغة قسوته تلك بغيرته على أمته وحبها لها، وتأمله من تقدم الأمم وتخلّف أمته، أمة السيادة والريادة والأجداد والمكرمات^(٩):

يا أمتي، إن قسوت اليوم معذرة فإن كفي في النيران تلتهب

فكم يحز بقلبي أن أرى أمماً طارت إلى المجد، والعربان قد رسبوا

ونحن كنا بهذا الكون ألوياً ونحن كنا لمجد الشمس ننسب

ويختتم قصيدته بتصوير رائع للتفاؤل والاستبشار بأولئك الفتية الصياد الذين آمنوا برهيم، وزادهم ربهيم هدى؛ إذ يكاد يسمع جلبة موكبهم الزاحف الميمون، ويحس اقتراب ساعة الخلاص على أيديهم الطاهرة بقدر من الله، تكلّوهم عناية الله، وترنوا أبصارهم لتطبيق شريعته السمحة لغراء^(١٠):

إني لأسمع وقع الخيل في أذني وأبصر الزمن الموعود يقترب

وفتية في رياض الذكر مرتعهم الله ما جمعوا، الله ما وهبوا

إذا نظرت إليهم خلّت أنهم جاؤوا من الخلد، أو للخلد قد ركبوا

جاؤوا على قدر، والله يحرسهم وشريعة الله .. نعم الفاي والنسب

لقد كان هذا الواقع المر الذي يعيشه العرب يحز في نفس الشاعر محمود مفلح، فلا يفتأ يقف أمامه متألماً متحيراً من استمراره وتكريسه، وأمة العرب غنية، لا ينقصها عدد، ولا يعوزها مال^(١١):

ها نحن في عدد النجوم، فكيف ليس لنا مكان؟

ها نحن نملك ثروة الدنيا ... ويملكنا الهوان

ها نحن تحت الشمس مقبرة وفي الجسد احتقان

كل الشعوب تكلمت والعرب ليس لهم لسان

فكأننا مر الزمان بنا وأنكرنا الزمان

ويضع يده على بعض الأوبئة التي فتكت بجسم أمتنا، حتى أردتها في ذلك الواقع المقيت، من جشع وحقد، وغرور وطيش، واستعلاء

وضع شاعرنا يده على بعض الأوبئة التي تفكك جسم أمتنا وكادت ترديها

جَشَعُ قَاتِلٍ، وَحَقْدُ حَقْوَدٍ
ووجوه موبوءة، وصدور
وضحايا وسادة وعبيد
وجبان يشد أزرجبان
وجسوم تضج فوق حرير
وعبي، نقول: ينطق درأ
زمن فيه قد فقدت صوابي
وغرور يطيش فوق غرور
خانقات كحقد المسعور
ولصوص مأجورة لأجير
وصغير يشد أزرجير
وجسوم تضج فوق حصير
وجبان، نقول: أي جسور؟
وعلى صخره هوى تفكير

ويلتفت الشاعر إلى واقع المسلمين بعد أن شَخَّص واقع العرب، فإذا هو لا يقل مرارة وبشاعة وسوءاً من واقع العرب، فيصعد شكواه في قصيدته (شكوى) من أن أمة الإسلام مثخنة بالجراح، تكالب عليها الأعداء في كل مكان، وسددوا إليها طعناتهم من كل مكان (١٣):

يا سيدي أمة الإسلام مُثَخَّنَةٌ
أَنْتِ تَلْفَتُ لَا تَلْقَى سِوَى بَلَدٍ
خَنَاجِرٌ طَعَنَتْهَا وَهِيَ مُذْبِرَةٌ
تَعَاوَزَتْهَا سِهَامُ الْعَذْرِ وَالنَّكَدِ
يشكو مرارة أيام إلى بلد
ومثلها طعن في الصدر لم تجد

ثم يتساءل: أين الفوارس من الفتية الصَّيد، الذين هزوا أركان الأرض بفتوحاتهم الرائعة باسم الله الواحد الأحد؟ إن الخيل وملاعب الخيل لتلقت حيرى متسائلة في شوق ولهفة عن أولئك الكماة البواسل (١٤):

أَيْنَ الْفَوَارِسُ مِمَّنْ كَانَ صَوْتُهُمْ
يُحْمِجُ الْخَيْلَ، تَرْنُو، أَيْنَ فِتْيَتُهَا:
يَزْلُزَلُ الْأَرْضُ بِاسْمِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ؟
إِنَّ الْمَلَاعِبَ مِثْلَ الْخَيْلِ لَمْ تَجِدِ!

ويلجأ إلى المفارقة الهائلة بين ذلك الماضي الأغر لأمة الإسلام، والحاضر القاتم الذي تتخط فيه، إذ كانت بعزتها تعانق الشمس، فأضحت بذلتها في الحضيض، لا تقذف سوى الزبد الفارغ، مع أنها كانت قليلة العدد، وهي اليوم تعد بالملايين (١٥):

قالوا: لقد كان لي يومٌ وقفْتُ به
وكان لي رايةٌ كالنسرِ شاحنةٌ
والآن، ماذا أقولُ الآن يا وطني
هذي الملايين والأحلام تُرْقِصُهَا
ما بالها حين دوى الحرب وانحسرت
ما بالها لم تقذف سوى الزبد
أعانقُ الشمسَ في عزِّي وفي تلدي
وأمةٌ، مثلاً الأقدارُ لم تلد
والدأءُ يفتك في قلبي وفي جسدي
ما بالها لم تزن شيئاً ولم تُقيد
نواجذ الدهر لم تقذف سوى الزبد

وفي قصيدته (نحن إسلامنا عظيم عظيم) يصور عظمة المسلمين بإسلامهم تصويراً يجلي المكانة العليا التي رفع بها الإسلام المسلمين، والقيم الكبرى التي عرفتها الدنيا بهم (١٦):

فِي يَدَيْنَا يَضِيءُ هَذَا الزَّمَانُ
إِنْ خَطَوْنَا، فَلِلْمَكَارِمِ نَخْطُو
نَحْنُ مَنْ عَلَّمَ السَّحَابَ جُوداً
أَبْجَدِيَّاتُنَا طُمُوحٌ وَعَزْمٌ
نَحْنُ إِسْلَامُنَا عَظِيمٌ عَظِيمٌ
مَا عَرَفْنَا سِوَى الْعَدَالَةِ نَهْجاً
نَحْنُ فِيهِ السُّطُورُ وَالْعُنُودُ
أَوْ نَطْقُنَا، فَلِلْخُلُودِ الْبَيَانُ
فَتَهَادَتْ فِي عُرسِهَا الْعُذْرَانُ
وَإِخَاءٌ وَأَلْفَةٌ وَأَمَانُ
لَا تُدَانِي إِسْلَامُنَا الْأَدْيَانُ
وَسِوَانَا دُرُوبُهُمْ طُغْيَانُ

ثم يصور أثر العقيدة في بناء الشعوب المسلمة النظيفة الحرة العزيرة الكريمة المجاهدة (١٧):

عندما تصقل العقيدة شعباً
علمتنا ألا نكون عبيداً
نحن في ساعة المليات موج
لا سجون تبقى، ولا سجان
وعدو الإسلام هذا الهوان
كاسح المد، ما له شيطان

كان يحز في نفس الشاعر أن يرى الإسلام وقيمه وأعرافه في غربة، تتجلى أكثر ما تتجلى في تصوّر الأعداء للإسلام وأهله تصوّراً قاصراً كلياً، يجعلهم يشيدون ببطولات المجاهد المسلم وإقدامه وتضحياته الفذة النادرة، ولكنهم لا يعزونها للإسلام العظيم الذي صنع هذا المجاهد الكميّ البطل، الذي يجب الموت كما يجبون الحياة، وإننا يعزونها إلى الأبطال المادية والأغراض النفعية. ولو أنهم استناروا بنور العقيدة الإسلامية السمحة، لسطعت حقيقتها أمام أعينهم، وعرفوا منهجها الشامل للحياة^(١٨):

هم يمدحونك فارساً مقدماً ومقاتلاً متمرساً وهماً
هم يمدحونك كلّ شيء إنما يتجاهلون بسيفك الإسلاماً
يا ويجهّم، حسبوا العقيدة قصّة إماماً ظفرت بها بلغت مراماً!
لو شاع نور الحق في أحداقهم عرفوا العقيدة منهجاً وحساماً

ويلتفت إلى أخي الإسلام الذي يعاني جهل الأعداء بحقيقة الإسلام، فيواسيه بريق العبارة، مبيناً له أن ذلك مبلغ أعداء الإسلام من العلم^(١٩):

عفواً أخي في الله، تلك حدودهم وأنا أبرئُ نهجك الأُسقاما
لم يُذكرُوا أنّ القضية عندنا دينٌ أغرُّ، يُواجه الأضناما
وعقيدة كالطُود تطلُّ خيلها وتُزيح عن دُرب الحياة رُكاما

٣ - الثقة والاعتزاز بالإسلام:

لقد أحس الشاعر ظمأ شديداً إلى عقيدة تملأ جوانب النفس بالري، ووجد هذا الريّ الشافي في عقيدة الإسلام، فانبهر يشيد بعظمتها وشمولها وقوتها؛ فهي القلعة الحصينة التي يلوذ بها المسلمون اليوم، وهي القلعة المنيعّة التي تدفقت منها خيول اليرموك بالأمس؛ وتألقت سيوف المجاهدين في حطين^(٢٠):

الإسلام العظيم أبعد الشاعر عن غوايات الجاهلية وصخب العقائد الباطلة

عَطَشُ قَاتِلٍ يُعْرِبُ في الجَوْ فِ غيرِ الإيمان لا يَزُونِي
ألفُ داءٍ سَطَا عَلَيَّ، وَلَكِنْ قَطْرَةٌ من دوائِهِ تُشْفِينِي
إنَّ القلعةَ الحصينةَ في عَصْرِ تَحَدَّثُ به الغزاةُ حُصُونِي
فَخَبُولُ اليرموكِ مِنْهُ أَطْلَتْ وَسُيُوفُ الكُفَّةِ في حِطِينِ

إنها العقيدة التي تطلق من فوق المآذن نداء (الله أكبر)،

فيقع أجمل وقع في الأنفس والأسماع والحياة والأحياء: إنه موجة من نور، دفقة من عبير، سنبال خضر، حلم، رقة عصفور^(٢١):

أطلقها كموجة من نُورٍ أطلقها كدفقة من عَبرٍ
أطلقها كما السنبال خضراً كحلمٍ، كَرَقَةِ العُصفُورِ

ويصور الشاعر وقع (الله أكبر) على النفوس كوقع المزن على ذي الغلّة الصادي؛ إنها لترطب جفاف الحياة، وتقشع عن الحياة والأحياء الشرور والمفاسد والآثام^(٢٢):

ظمئتُ أنفُسُ البرايا وتَأَقَّتْ لِلنِّداءِ الحَبِيبِ، لِلتَّكْبِيرِ
لِحُرُوفٍ، هي الحياةُ، ولولا ها لَضَجَّتْ حَيَاتُنَا بالشرورِ
جَفَّتِ الأَرْضُ مِنْ رِياحِ الخُماسِ مِنْ وتَأَقَّتْ إلى الثَّرَى المَطُورِ

من هذا الشعور العميق بالانتماء للإسلام كان الشاعر محمود مفلح ينطلق في تشقيق معانيه وتلوين صوره؛ فالإسلام العظيم يجعله في حصانة من غوايات الجاهلية، وصخب العقائد الباطلة. وقد ولد هذا الشعور العميق بالانتماء للإسلام لدى الشاعر اعتزازاً شديداً بإسلامه، تجلّى في جهره به بأعلى صوته، بل إن قلبه لينبض بهذا الاعتزاز، وتفيض نفسه به، فينطلق لسانه مردداً كلمة (مسلم) التي تهتز لسماعها الأرض، وتزهو مرايع الزيتون^(٢٣):

فإذا ضَجَّتِ العقائدُ في الأر فأنما مسلمٌ، وهذا انتبائي
فأنما مسلمٌ، وهذا انتبائي ملءٌ صَوْتِي أقولها، ملءٌ نَبْضِي
ضِ وراحتٌ بسحرها تُغْوِينِي ملءٌ شمسِ الوجودِ، ملءٌ يَقِينِي
وكما شئتُ يا حياةُ فكوني ضِ وتزهو مرايعُ الزيتونِ

ويتملى الخيال هنا جمال الصورة في جعل مرايع الزيتون تحسّ نسبتها إلى الشجرة المباركة التي مثل القرآن انبعاث نور السماوات والأرض منها، وهي زيتونة لا شرقية ولا غربية، فتزهو مرايع الزيتون لهذه النسبة، وتبته فخراً.

ويلتفت الشاعر إلى المرأة، فيُلقي في سمع الفتاة المسلمة المعتزة بإسلامها، المستمسكة بزيتها الإسلامي المحتشم المتميز، يلقي نداء الاعتزاز والإكبار والتقدير، مؤكداً لها أن في حجابها العفاف والطهر والصون والحشمة والتقوى والأصالة والمجد والتقوى وثواب الله عز وجل، داعياً إياها ألا تبالي بما ترى من تكشف وتبرج وعري؛ فما هو إلا سراب خلب، ويريق خادع، ومثلها في علياء حشمتها وعفتها وأنوثتها المصونة، كمثل غصن رطيب زكي فوّاح في دوحة الحق، وكنبتة طاهرة في أرض الإسلام، تألفت كالكوكب الملتصع المنير^(٢٤).

أُسْدِي يَا ابْنَةَ الْكَرَامِ الْحِجَابَا	وَأَفْخَرِي فِيهِ مَظْهَرًا وَلُبَابَا
إِنَّ فِيهِ الْعِفَافَ وَالطَّهَرَ وَالْجُشَا	مَّةً وَالْمَجْدَ وَالتَّقَى وَالثَّوَابَا
لَا تُبَالِي بِمَا تَرَيْنَ مِنَ الزَّيْنِ	فِ فَلَيسَ السَّرَابُ إِلَّا سَرَابَا
أَنْتِ غَصْنٌ فِي دَوْحَةِ الْحَقِّ فَوَا	خُ زَكِي الثَّارِ طَابَتْ وَطَابَا
أَنْتِ نَبْتُ الْإِسْلَامِ فِيهِ تَعْنِي	تِ، وَفِي ظِلِّهِ لَمَعَتْ شَهَابَا

وندع القاريء يقارن بين هذا النداء الذي هتف به شاعر من شعراء الصحوة الإسلامية، ونداء الزهاوي الذي أطلقه منذ عشرات السنين محزناً المرأة على تمزيق الحجاب:

مُرْقِي يَا ابْنَةَ الْعِرَاقِ الْحِجَابَا وَاسْفِرِي فَالْحَيَاةُ تَبْغِي انْقِلَابَا

ليرى البون الشاسع بين مضمون الأدب الإسلامي، ومضمون الأدب المتفلت من قيم الأمة، البعيد عن شخصيتها الأصلية، المحرّض على التغريب والتقليد والذوبان.

٤ - أخوة الإيمان:

منظر الحجيج المتدفق إلى مكة المكرمة هزّ
مشاعر الشاعر لأنه من مظاهر وحدة هذه الأمة

لقد انتشت نفس شاعرنا محمود مفلح بتلك الرابطة المقدسة التي تربط المسلم بأخيه المسلم، وهي رابطة الأخوة في الله، مهما كان لونه وجنسه ولغته؛ ذلك أن أخوة الإيمان أمتن روابط القلوب، وأنظف وشائج النفوس، وأسمى صلات العقول والأرواح. فلا بدع أن تنفعل نفس الشاعر بكل مشهد يجسّد هذه الحقيقة النورانية الخالدة، فتسرب على لسانه شعراً يحكي عظمة عقيدة الإسلام التي وحدت بين المؤمنين من شتى الأجناس والألوان واللغات.

ومن أبرز هذه المشاهد التي هزّت مشاعر شاعرنا منظر الحجيج اللجب، المتدفق إلى مكة المكرمة كالبحر الزاخر، تتابع أمواجه البشرية من كل جنس ولغة ولون ووطن، جمعتهم عقيدة التوحيد، وجعلت أفئدتهم تهوي إلى بيت الله المحرم، فانسابت جموعهم من أقاصي المحيط ومن السند، وقد تجلت في وسط هذه الجموع الهادرة بكلمة التوحيد عظمة العقيدة السمحة التي ألفت بين هذه القلوب^(٢٥):

دَفَقَتْ مَكَّةُ الْعَظِيمَةَ بِالْبَحْ	رٍ، فَمَوْجٌ يَأْوِي وَمَوْجٌ يَبِينُ
وَحَدَّتْهُمْ عَقِيدَةً، أَيْنَ مِنْهَا	لَوْثَةُ الطَّيْنِ وَالْعَمَى وَالْجُنُونُ؟
مِنْ أَقْصَايِ الْمُحِيطِ جَاؤُوا مِنَ السَّنَنِ	دِ وَشَاهَتْ بِحُشْدِهِمْ «بَكِينُ»
أَيْنَ مِنْهَا عَقَائِدُ هَابِطَاتٍ	بَعْضُهَا صَخْرَةٌ وَبَعْضُ عَجِينُ!!
لَيْسَ إِلَّا مَا يُشْبِعُ الْفَرْجَ وَالْبَطْنَ	رَنَ، فَيُثْبِتُ فُرُوجَهُمُ وَالْبَطُونَ

ومن هذا التصور الشامل لأخوة الإيمان ينبجس الشعور العميق في نفس شاعرنا، بما توجهه هذه الأخوة من حقوق، على كل من نطق بالشهادتين في المعمورة، يعبر عنه بهذا الاستفهام المفعم بالاستنكار للمذابح البشعة التي راح ضحيتها ألف من المسلمين البنغاليين في آسام^(٢٦):

لِمَاذَا يُذَبِّحُونَ وَنُسْتَكِينُ	وَلَا أَحَدٌ يَرُدُّ وَلَا يُبِينُ
إِلَى الْإِسْلَامِ نَسَبْتُنَا وَهَذَا	دُمُ الْإِسْلَامِ أَرْخَصَ مَا يَكُونُ؟!
وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِكُلِّ أَرْضٍ	طَرِيدٌ أَوْ سَجِينٌ أَوْ طَعِينٌ

قصائد الشاعر دعوة إلى النهوض واليقظة والبناء على أساس من الإسلام الحنيف

لم يفتأ الشاعر محمود مفلح يطلق صرخاته لبني قومه، يدعوهم فيها إلى النهوض من وهدة التخلف، والتحرر من ربكة الطغيان وهيمنة الاستعمار، وبناء الحياة الحرة العزيزة الكريمة. وكان يشكو في كثير من الأحيان من بلادة حس قومه؛ إذ لم تؤثر فيهم القوافي المنضدة ولا الخطب المنمقة، كأنها استحالت ألحان البيان البديع نحيباً تنقبض له النفوس، أو نعيقاً تمججه الأسباع (٢٧):

سَمْتُ مِنَ الْكِتَابَةِ يَا صَدِيقِي	وَمِنْ نَزَفِ الْجِرَاحِ عَلَى الطَّرِيقِ
وَمِنْ دَفْعِ الشَّرَاحِ بِجَوْفِ لَيْلٍ	تَفَجَّرَ بِالدَّخَانِ وَبِالْحَرِيقِ
لَقَدْ زَعَمُوا بِأَنَّ الْحَرْفَ بَرَقَ	وَأَنَّ الْغَيْثَ خِصَامَةُ الْبُرُوقِ
لِمَاذَا يَكْتُبُ الْكُتَّابُ فِينَا	وَهَذَا الْأَفَقُ يَنْزَحِرُ بِالتَّقِيقِ
تُدَاسُ حُرُوفُنَا صَلْفًا وَكِبْرًا	وَتُطْرَدُ كَالذَّبَابِ عَنِ الرَّحِيقِ
فَلَا أَحَدٌ يُصِيخُ إِذَا هَتَفْنَا	وَلَا أَحَدٌ يَمْسُ يَدَ الْغَرِيقِ

ولكن بلادة الحس هذه لم تفت في عضد الشاعر المؤمن بقضيته، ولم تقعه عن الدعوة والتذكير والتبصير. فهي هو ذا في قصيدته (صرخة) يصرخ في قومه بصوت عال أننا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نهضة ولا نجاح لنا ولا نصر إلا به (٢٨):

نحن قومٌ أعزنا الله بالإشـ	سلام يا قوم، فانهضوا وأفيقوا
وابعثوا النار في رماد الليالي	وأضيئوا كما تضيئ البروق
وأريقوا هذي الدنان من الرجز	يس على جانب الطريق أريقوا
نحن لن نقهر اليهود إذا لم	يقهر البغي عندنا والفسوق

إنها دعوة جاهرة إلى النهوض واليقظة والبناء على أساس من الإسلام الحنيف، وإنه لتأكيد على أن النهضة لا تتحقق لأمة الإسلام إلا إذا تخلص المسلمون من آثار الغزو الفكري الذي زرعه فينا الصليبية واليهودية (٢٩):

كَيْفَ نَسْتَنْبِثُ النَّهَارَ مِنَ اللَّيْلِ وَفِينَا السَّاسَانُ وَالْإِغْرِيقُ؟
كَلِمَا سَرَتْ خُطْوَةٌ لِبِلَادِي صَدَّ حُطُوي الْحَاخَامُ وَالْبَطْرِيقُ

وتتأجج العقيدة في نفس الشاعر، فينسرب الشعر من أعماقه متوهجاً بالثقة المطلقة بأن عقيدة الإسلام وحدها هي التي تقودنا إلى المجد والسودد (٣٠):

أَمَتِي أَمَّةُ الْعَقِيدَةِ يَا قَوْمِ هَذَا سِلَاحُهَا الْمَوْثُوقُ
حَسْبُهَا أَنَّمَا اسْتَطَالَتْ عَلَى الشَّمْسِ وَمِنْهَا الْفَارُوقُ وَالصَّدِيقُ

وهكذا تتوالى صرخات الشاعر في قصائده الساخنة الداعية إلى النهوض والتحرر، فتأتي مدوية جاهرة مجلجلة، تحمل وهج انفعاله وصدق معاناته. ولا يثنيه عن إطلاقها علمه أحياناً أن لا من سميع ولا من مجيب، فحسبه أنه كان يطلقها معبراً عما يعتلج في نفسه من بواعث الألم والحرقه على قومه الغافين السادرين في غفلتهم، أملاً أن تثمر إحدى صرخاته في انبلاج فجر الحرية والخلاص (٣١):

أَنَا أَدْرِي بِأَنَّ شِعْرِي لَغَوُ	وبه هذه الصدور تضيق
أَنَا أَدْرِي بِأَنَّهُ غَيْرُ مُجِدِّ	بقوافيه لا تُشَقُّ طَرِيقُ
غَيْرَ أَنِّي صَرَخْتُهَا دُونَ وَعِي	مثلاً يطلق الصراخ الغريـ
فَعَسَى أَنْ تَكُونَ صَرْخَةً فَجَرٍ	يقصف الرعد بعدها والبروق

٦ - الشعارات الزائفة والكبت والتنكيل:

ويقف شاعرنا عند الشعارات الزائفة التي أعشت الأبصار، وملأت الأسباع ضجيجاً فارغاً، يرفعها الطغاة المستلطفون، مثنين الشعوب

المسحوق بالريغيف، وبالنصر والأجداد، حتى إذا ما جد الجُد انكشف الزيف، وكانت الهزائم المخجلة القاتلة^(٣٢):

فلسطين الوطن الأم للشاعر لها

مكانها الخاص في أعماله التي

تدور حول إحقاق الحق

عُمُرُ مَرٍّ وَالشَّعَارَاتُ تُثَلِّ
كَمْ شَقِينَا بِهَا يَمِيناً يَسَاراً
كَانَ فِيهَا الرِّغِيفُ أَقْدَسُ حُلْمٍ
كَانَ فِيهَا الزَّعِيمُ أَوْحَدُ قَدْأ
وَعَدُوِّي بِنَارِهَا يَكْوِينِي
وَتَعِينُنَا مِنْ خَبْطِهَا الْمَجْنُونِ
يَتَجَلَّى لِشَعْبِنَا الْمَطْحُونِ
فَإِذَا قَالَ، فَالْمَقُولَةُ دِينِي!

ويضيق ذرعاً بالكبت والتزييف والاستبداد والتثكيل^(٣٣):

عُمُرُ وَالْعُيُونُ تُعَصَّبُ حَتَّى
ضِقْتُ بِالتَّرَهَاتِ تَرْجُمُ عَقْلِي
ضِقْتُ بِالمَوْتِ فِي الْحَيَاةِ، فَهَذَا
ضِقْتُ بِالنَّهْرِ آسِناً وَيَقُولُو
وَأَخيراً أَفْقَتْ وَالْكَأْسُ سُومٌ
وَقِيْـــــوْدٌ تُقْلُ رَجُلِي وَكَفَي

نَسِيتُ ضَوْءَهَا الْحَبِيبَ غُيُوبِي
وَالنَّفَايَاتِ فِي الدُّجَى تَغْزُونِي
كُلُّ شَيْءٍ فِي رَحْلَتِي يَزِيدُنِي
نَ: فُرَاتٌ عَنْ مَائِهِ الْمُسْنُونِ!
وَالشَّيَاطِينُ فِيهِ تَسْتَهْوِينِي
وَسَيَاطُ لَثِيمَةٍ تُشْوِينِي

٧ - قضية فلسطين:

كان لفلسطين وطن الشاعر الأم النصيب الأوفى من شعره، ومن ثم كان كثير من شعره يدور حول مأساة العرب والمسلمين في فلسطين. ومن روائع قصائده فيها: (وفلسطين زعتر ورصاص). فقد شَخَّصَ فيها مأساة الشعب الفلسطيني الظامى إلى العودة والتحرير، بعد أن قضى جيل النكبة عمره في كفاح مرير، وظمأ شديد، وتطلَّع واصب ليوم النصر^(٣٤):

تَبَيَّنِي مَــــاذَا جَـــــرَى أَسْمَاءُ
نَحْنُ مِنْ غَصٍّ بِالسَّوَالِ وَشَاخَتْ
نَحْنُ مَنْ أَدْرَكَ الزَّمَانَ نَدِيّاً
عُمُرُنَا عُمُرُ نَكْبَةٍ دَهْمَتْنَا
عَطَشٌ قَاتِلٌ، وَصَبْرٌ عَنِيدٌ
وَوَقُوفٌ عَلَى الضُّفَافِ وَعَيْنُ

نَحْنُ فِي لَفْحَةِ الْمَجْبَرِ ظِلْمَاءُ
فِي مَآقِبِهِ دَمْعَةٌ خَرَسَاءُ
ثُمَّ جَفَّتْ أَوْرَاقُنَا الْخَضْرَاءُ
أَيْنَ مِنْهَا، وَالْوُعْتِي، كَرْبَلَاءُ
وَطَمْوُوحٌ، وَعَثْرَةٌ، وَابْتِدَاءُ
تَرْمُقُ الْأَفْقَ لَوُودَرْتُ عَكَاءُ

وقد نظم قصيدته هذه قبل قيام الانتفاضة المباركة بأكثر من سنتين، وتحدَّثَ فيها عن جهاد الشعب الفلسطيني لتحرير أرضه، وكأنه ينظر إلى الانتفاضة التي فجرها الكماة الصَّيد الأبناء من أبناء الإسلام في أرض الإسراء والمعراج، حتى إنه ليتحدث عن سلاح الحجارة إن فات المجاهدين الرصاص. إنها الرؤية الإسلامية الصحيحة لحقيقة الجهاد الصادق المحرَّر^(٣٥):

إِنَّمَا غَضَبُهُ الشَّعُوبُ فِي الْأُزْ
إِيَّاهُ شَعْبِي، وَأَنْتَ أَصْلَبُ شَعْبٍ
شَقَّ دَرْبَ الْكَفَّاحِ بِالْجَسَدِ الْعَا
إِنْ عَدِمْنَا الرِّصَاصَ فَالْحِجْرُ الْغَا
لَمْ يَمِتْ شَعْبُنَا الْعَظِيمُ وَلَا جَفَّ
نَحْنُ مِنْ أَتَقَنَّ الشَّهَادَةِ حَتَّى
نَحْنُ مَنْ أَكْسَبَ الْحِجَارَةَ تَبَضًّا

ضِ هَدِيرٌ، وَفِي السَّأِ أَصْدَاءُ
وَلَدَى السَّبَقِ تُعْرِفُ النَّجْبَاءُ
رِي، وَزَحَتْ أَحْجَازُهُ الصَّأ
ضِبُّ مَنْ رِصَاصَةٌ وَقَضَاءُ
بَتْ عَلَى الدَّهْرِ تُرْبَتِي السَّمَرَاءُ
ظَنَّ أَنَا مِنْ دُونِنَا الشَّهَادَاءُ
فَإِذَا الْأَفْقُ بَرَفُهَا وَالشِّتَاءُ

ويشبه تعلق المسلمين بأرض الإسراء والمعراج بالعشق، يكون بين العشاق المتيمين، لا فكاك منه ولا انعتاق، ويصور معارك الأبطال على ثرى فلسطين عرساً ترقص له الروابي والبطاح، وصلاح الدين يزجي كتاب الفاتحين المجاهدين، وييده اللواء المرفوع، وهتاف التوحيد يعلو ويعلو، حتى يبلغ الجوزاء^(٣٦):

إِنَّ أَرْضَ الْإِسْرَاءِ تَنْبُضُ بِالْعِشْقِ وَإِنَّا عَشَّاقُهَا الْقُدَمَا
عُرْسُنَا الْيَوْمَ، فَالزَّغَارِيدُ مَوْجُجٌ وَالْمِيَادِينُ كُلُّهَا حِنَاءُ
عُرْسُنَا الْيَوْمَ، فَارْقُصِي يَا رَوَابِي وَأَطْلِي بِالنَّدَى عَفْرَاءُ
لَمْ يَزَلْ يَتَخَفَى الْجَمُوعُ صَلاَحُ الدِّينِ يَزْهَوُ، فِي قَبْضَتِيهِ اللَّوَاءُ
وَهَتَافُ التَّوْحِيدِ يُطْلِقُهُ الشَّعْبُ وَتَهْقُولُ لِسَحَرِهِ الْجُوزَاءُ

وفي قصيدته (شكوى) بيت القدس الجريح آلامه المبرحة، ويشكو من الجراح النازفة، متسائلاً عن يضمده تلك الجراح، فلا يرى أمامه إلا جيوش
القولان، تضح بهم المنابر والمؤتمرات كل عام دوننا جدوى، والعدو المغتصب ينهش في جسم الأمة الجريح النازف مبتهجا طرباً^(٣٧):

يَا قَدْسُ، إِنَّ جِرَاحِي كُلُّهَا نَزَفَتْ فَمَنْ يُضَمِّدُ جِرَاحَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ
يُقَاتِلُونَ بِالْفَاطِظِ مُنَمَّقَةً وَيَمْتَطُونَ خِيُولَ الشَّعْرِ كَالْمُرْدِ
وَكُلُّهُمْ فِي لَهيبِ الْقَوْلِ عَنَتَةٌ وَكُلُّهُمْ فِي لَهيبِ الْفَعْلِ كَالْوَتِدِ
فِي كُلِّ عَامٍ لَنَا حَشْدٌ وَمَوْثَرٌ وَكُلُّ عَامٍ تَرَى أَنْكِي مِنَ التَّكْدِ
وَالذُّبُّ يَنْهَشُ فِي أَشْلَانِنَا طَرِباً وَالْبُومُ أَصْبَحَ صِنْوَ الْبَلْبِلِ الْغَرْدِ

وتُحْيِيهِ الْقَدْسُ فِي وَلَهٍ وَحيرة سائلة: أين المنقذون من الأحرار الأباة، رهبان الليل وفرسان النهار من المؤمنين، الذين تتجافى جنوبهم عن
المضاجع، يَمْضُونَ لَيْلَهُمْ فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، لَا فِي الْحَانَاتِ وَالْمِرَاقِصِ وَدُورِ اللّهُوِ وَالْمَجُونِ^(٣٨):

وَالْقَدْسُ تَنْظُرُ وَلَهَى أَيْنَ مَنْقَذُهَا وَأَيْنَ مَنْ هَجَرَتْ أَجْسَادُهُمْ فُرُشاً
وَأَيْنَ مَنْ هَجَرَتْ أَجْسَادُهُمْ فُرُشاً يَقْطَعُونَ بِأَيِّ اللَّهِ لَيْلَتَهُمْ
لَا فِي الْمِرَاقِصِ بَيْنَ الْخُمَرِ وَالْخُرْدِ وَأَيْنَ مَنْ رَكَزُوا الرِّيَاطَ فِي صَفَدٍ؟
إِلَّا الْأَسْنَةَ فِي شَوْقٍ لِيَوْمٍ غَدٍ

٩ - جيل الصحوة الإسلامية المنقذ:

للشاعر محمود مفلح وقفات كثيرة عند جيل الصحوة الإسلامية
المنقذ؛ إذ قلما تخلو قصيدة من قصائده التي عالج فيها أوضاع
الشعوب المسلمة، من ذكر جيل الصحوة الذي تعقد عليه الآمال.

وله قصيدة بعنوان (جيل الصحوة)، ركب فيها متن شعر التفعيلة الحر،
ووجه نداءه لجيل الصحوة الإسلامية المحصن بالعقيدة، السائر في مواكب

النور. فهو يناديه بجيل المصاحف تارة، وبخيمير الأرض تارة أخرى، وبطلق الولادة تارة ثالثة، ويرى فيه النبع الثر المتدفق في صحراء الأمة الظمأى،
والجيل الجاد الذي كان برهاناً ساطعاً على إعادة الثقة بأمة الإسلام، وشهادة ناطقة بجدارتها في الحياة^(٣٩):

وَأَقُولُ لِلْجِيلِ الْجَدِيدِ
وَأَقُولُ لِلْجِيلِ الْمَحْصَنِ بِالْعَقِيدَةِ وَالْمَتَوَجِّجِ بِالصَّبَاحِ
وَأَقُولُ يَا جَيْلَ الْكَفَاحِ
أَنَا بَلَوْنَا اللَّيْلَ وَالْأَشْيَاءَ وَالْمَوْتَ الْمُؤَجَّلَ وَالْجِرَاحَ
وَأَقُولُ يَا جَيْلَ الْمَصَاحِفِ
يَا خَيْرَ الْأَرْضِ .. يَا طَلَقَ الْوِلَادَةِ
هَآ أَنْتَ كَالنَّبُوعِ تَذْفُقُ فِي صَحَارِنَا
وَتَمْنَحُنَا الْوَثِيقَةَ وَالشَّهَادَةَ

وينظر إلى مد الصحوة الإسلامية الكاسح، يقوده المؤمنون الأشاوس، وقد تسلحوا بسلاح العقيدة والإيمان وحب الشهادة، فيرى فيهم الأباة الكماة المحررين
الذين أنبتهم الجرح القديم، فجاءوا ليجلوا من عالمنا دياجير الظلام، وليثبتوا للدنيا قاطبة أن المسلم لا يقيم على ضيم، ولا يركع إلا لله^(٤٠):

وَلَكُمْ تَهْرُؤُ الْمُؤْمِنِينَ عِصْيَا وَأَسْفَا
جَاؤُوا مِنَ الْجَرْحِ الْقَدِيمِ وَطَبْعُهُمْ
إِنِّي لَأَلْمَحُهُمْ عَلَى صَهْوَاتِهِمْ
جِيلٌ تَحَرَكَهُ الْعَقِيدَةُ مُتَرَعِّجٌ
ضُمُرَتْ مِنَ الْهَمِّ الْعَظِيمِ جَسُومُهُمْ
يَمْضِي عَلَى دَرْبِ الشَّهَادَةِ مُؤْمِنًا
قُلْ لِي بِرَبِّكَ كَيْفَ يَرْكَعُ مُسْلِمٌ

وَالْمُؤْمِنُونَ إِزَاءَهَا أَطْوَادُ
طَبَعُ الرِّيحِ تَرْفُقُ وَعِنَادُ
كَالْمَوْجِ لَيْسَ لِمَدَّةِ أَبْعَادُ
بِالْكِبَرِيَاءِ وَسَيْفُهُ اسْتَشْهَادُ
وَلَقَدْ تَنَوَّعَتْ بَعِيْثُهَا الْأَجْسَادُ
أَنَّ الْحَيَاةَ عَقِيدَةٌ وَجْهَادُ
وَلَهُ الْإِبَاءُ عِمَامَةٌ وَنَجَادُ

وفي قصيدته (نحن إسلامنا عظيم عظيم) يصور عظمة المسلمين بإسلامهم، ويحلي أثر العقيدة في بناء الشعوب المسلمة العزيزة القوية. ولئن أخنى الدهر على تلك الشعوب، وتاهت مراكبها، لقد قيض الله لها اليوم من أبناء الصحوة الإسلامية الفتى الربان الماهر التقى الأمين^(٤١):

إِنْ تَكُنْ تَاهَتْ السَّفِينَةُ يَوْمًا
مُسْلِمٌ صَاغَهُ الْوُجُودُ وَجُودًا
صَقَلَتْهُ الْآيَاتُ حَتَّى تَرَأَى

فَلَقَدْ جَاءَهَا الْفَتَى الرَّبَّانُ
وَبَعِينِيهِ تُشْرِقُ الْأَوْطَانُ
مِثْلَ سَيْفٍ يَزِينُهُ اللَّمْعَانُ

إنه نموذج المسلم الواعي المنادي بدعوة القرآن التي بها تنقش سدفه الليل، وتبدد ظلمته التي طالت على أمتنا، وفي دعوة القرآن سر قوتنا ونهضتنا وتحررنا وعزنا^(٤٢):

ظَلَمَةُ اللَّيْلِ لَنْ تَطْوِيَ عَلَيْنَا
فِيهِ نَبْضُ الْحَيَاةِ، فِيهِ الْأَمَانِي
فِيهِ عِزٌّ، وَفِيهِ هَدْيٌ وَنَصْرٌ

وَلَدَيْنَا نَبْرَاسُنَا الْقُرْآنُ
فِيهِ أَيْامُنَا الْوُضَاءُ الْحَسَانُ
وَسِوَاهُ الضَّلَالُ وَالْخُسْرَانُ

ومن هنا تكالبت قوى الكفر على إبعادنا عنه، وحجبنا عنه، وحجبنا عنه^(٤٣):

هَذِهِ الْقَصَائِدُ عَرَفَ عَلَى
أُوتَارِ الْعِزَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

كَمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَظْلَ مَهِيضًا
كَمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَقُولَ سِوَاهُ
حَاوَلُوا حَاوَلُوا اغْتِيَالُ الْمَثَانِي

لَا جَنَاحَ يَقْوَى وَلَا طَيْرَانُ
وَهُوَ لَا مَنْطِقَ لَهُ .. لَا لِسَانُ
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُطْفَأُ الْإِيْمَانُ!؟

ويعود فيصور شقوتنا وتعاستنا بغياب القرآن عن مسرح حياتنا، إذ

سيطر الجبان، وفشا القتل والشقوة والفساد^(٤٤):

غَابَ عَنِ مَسْرَحِ الْحَيَاةِ زَمَانًا
فَإِذَا النَّاسُ قَاتِلٌ وَقَتِيلٌ

وَعَلَا الْمَسْرَحَ الْجَبَانَ الْجَبَانَ
وَإِذَا الْكُوفُ شِقْوَةٌ وَدُخَانُ

ثم هلت البشرية بقدوم كتائب الإيْمَانِ ترى كالمزن المتهون، يحجي موات الأرض، وكالنور الكاشف يطرد الزيف، ويعري الوثنية والطغيان^(٤٥):

ثُمَّ جَاءَتْ بِشَائِرُ اللَّهِ تَتَرَى
فِي يَدَيْنَا رِسَالَةُ اللَّهِ لِلنَّاسِ
قَدْ رَحَلْنَا مِنَ الْجَفَافِ وَجُنْنَا
وَتَلَاشَتْ عَلَى الطَّرِيقِ زَيْفُ

وَأَطْلَتْ بِخَيْلِهَا الْفُرسَانُ
سِ، وَفِينَا الْإِيْمَانُ وَالْإِحْسَانُ
مَطْرَرًا، إِنَّ رَمَلْنَا ظِلْمَانُ
وَتَدَاعَتْ يَكْبَرُهَا الْأَوْثَانُ

ويعري بعد ذلك تبعية بعض بني جلدتنا وعبوديتهم أمام حضارة الغرب المادية الزائفة الغارقة في جحيم الجريمة والحيرة والضياع والفساد، ويعجب من عبودية بعض الأقزام من أبناء قومنا للغرب، وتبعيتهم له، وتقليدهم إياه^(٤٦):

ثم يصور المدى البعيد الشاسع بين جيل القرآن وجيل الشيطان في صيغة سؤال^(٤٧):

سَقَطَ الْغَرْبُ فِي الْجَرِيْمَةِ حَتَّى
فَالظُّلَامُ الْكَثِيفُ جَنْسٌ وَخَرٌّ
صَوْرٌ تَبَعْتُ الْغَثَائَةَ فِي النَّفْ
فَسَدَتْ فِيهِمُ الطَّبَاعُ فَهَذَا
وَالْغَرِيبُ الْعَجِيبُ أَنَّ شَبَاباً
تَبِعُوا وَهُمْ شَبِراً بِشِيرٍ وَلَمَّا
رَسَفَتْ فِي جَحِيمِهَا الْأَبْدَانُ
وَالنَّهَارَاتُ كُلُّهَا غَثِيَانُ
سِ وَتَبَيَّنَ عَنْ مِثْلِهَا الْإِنْسَانُ
تَغْلِبَانُ، وَهَذِهِ تُعْبَانُ
مَنْ بَنَى أَمَّتِي لَهُمْ عُجْبَانُ
دَخَلُوا الْجَحْرَ أَسْرَعَ الْأَعْوَانُ

أَيْنَ جِيلٌ شِعَارُهُ اللَّهُ يَا قَوْمُ وَجِيلٌ شِعَارُهُ الشَّيْطَانُ؟

هذا هو شأن جيل التغريب والتبعية والذلّ، وهو الجيل الذي شعاره الشيطان، أما الجيل الذي شعاره الله فهم أولئك الثائرون على أوضاع المسلمين المتردية، هم جيل الصحوة من أبناء الأمة المسلمة الأبرار، ورواد المنهج المحمدي الأغر، لا ييغون به بديلاً. ولقد دوى صوتهم في الآفاق كالرعد، معبراً عن غضبهم لدينهم وعقيدتهم، وأذاقوا أعداءهم فتكات عزة الإيوان (٤٨):

هِيَ أُمَّةٌ، وَالنَّهْجُ نَهْجٌ مُحَمَّدٍ
مُسَّتْ عَقِيدَتُهُمْ فَكَانَ دَوِيُّهُمْ
هِيَ عِزَّةُ الْإِيمَانِ فِي فَتَكَاتِهِمْ
هِيَهَاتَ أَنْ يَرْضَوْا سِوَاهُ إِمَامَا
كَالرَّعْدِ يَقْدُفُ عِزَّةً وَضَرَامَا
هَلَا عَرَفَتِ الْمُسْلِمَ الْمُقْدَامَا

وبعد، لقد عزف الشاعر محمود مفلح على قيثارة شعره ألحان العزة الإسلامية، وصوّر ماضي المسلمين المشرق وحاضرهم المظلم، ورسم سبيل نهوضهم وتحررهم، وأزرى بتبعية الأذنان والعبيد، وأشاد بأخوة الإيوان وجيل الصحوة الإسلامية المنقذ، وحيّا جهاد المجاهدين في فلسطين وأفغانستان.

وكان يصدر في هذا كله عن عقيدة راسخة بأن لا خلاص للمسلمين من تخلفهم وتبعيتهم وذلهم واستكانتهم إلا بعودة صحيحة إلى الإسلام. وقد أترع إيمانه بأفكاره نفسه بالمشاعر الملتبئة، وأكسبها حرارة المعاناة، فجاء شعره نابضاً بالعاطفة المتأججة الرّيا، مؤراً باللفظ الكريم الجزل، مزداناً بالتعبير الناصع الجميل، والصورة المجنحة الشاخصة، والقافية المتينة العذبة، والإيقاع المطرب الأخاذ، اسمعه يقول (٤٩):

أَنَا مَا سَجَدْتُ وَلَا انْحَنَيْتُ بِقَامَتِي
أَنَا مُسْلِمٌ، وَأَقُولُهَا مَلَاءَ الْهَوَى
أَنَا مُسْلِمٌ، وَالنُّورُ يَنْبِضُ فِي دَمِي
أَنَا مُسْلِمٌ، وَالشَّمْسُ تَأْلَفُ هَامَتِي
مَا فَلَ سَيْفُ الْعَادِيَاتِ عَزِيمَتِي
أَنَا كُلَّمَا سَقَطْتُ عَلَى قَذِيفَةٍ
أَنَا كُلَّمَا قَطَعُوا بَنَانًا مِنْ يَدِي
إِلَّا لِرَبِّي الْوَاحِدِ الدَّيَّانِ
رَغَمَ الدَّجَى وَالسُّوْطِ وَالْقَضْبَانِ
وَلِسَانُ كُلِّ الْمَكْرَمَاتِ لِسَانِي
وَالسَّائِرُونَ بِدَرْبِهَا إِخْوَانِي
كَلَا، وَلَا هَزَّ الْأَذَى إِيْمَانِي
هَطَلْتُ عَلَى سَحَابِ الْفَرْحَنِ
نَبَتْ عَلَى كَفِّي أَلْفُ بَنَانِ

بهذا المضمون العالي، وبهذا الأسلوب الحي المتدفق الجميل، كان شعر محمود مفلح من عيون الأدب الإسلامي المعاصر، وكان صاحبه من النجوم المتألقة في سماءه.

الهوامش

- | | | | |
|------------------------------|---------------------------------|-------------------------|---------------------------|
| (٩) إنها الصحوة: ٣٠. | (٢٠) سموخاً أيها المآذن: ٢٢. | (٣١) المصدر السابق: ٤١. | (٤٢) إنها الصحوة: ٣٤. |
| (١٠) إنها الصحوة: ٣٠. | (٢١) سموخاً أيها المآذن: ٤٨. | (٣٢) المصدر السابق: ٢٣. | (٤٣) المصدر نفسه: ٣٤. |
| (١١) الراية: ٧. | (٢٢) سموخاً أيها المآذن: ٤٨. | (٣٣) المصدر السابق: ٢٤. | (٤٤) المصدر نفسه: ٣٤. |
| (١٢) سموخاً أيها المآذن: ٤٩. | (٢٣) سموخاً أيها المآذن: ٢٥. | (٣٤) الراية: ٩. | (٤٥) المصدر نفسه: ٣٥، ٣٤. |
| (١٣) الراية: ٣٨. | (٢٤) سموخاً أيها المآذن: ٢٦. | (٣٥) الراية: ١١. | (٤٦) المصدر نفسه: ٣٦، ٣٥. |
| (١٤) الراية: ٣٩. | (٢٥) الراية: ٦٣. | (٣٦) الراية: ١١. | (٤٧) إنها الصحوة: ٣٦. |
| (١٥) الراية: ٣٩. | (٢٦) سموخاً أيها المآذن: ١١. | (٣٧) الراية: ٤٠. | (٤٨) الراية: ٣٤. |
| (١٦) إنها الصحوة: ٣٢. | (٢٧) سموخاً أيها المآذن: ١٦-١٨. | (٣٨) الراية: ٤٠. | (٤٩) إنها الصحوة: ٥٤-٥٦. |
| (١٧) إنها الصحوة: ٣٣. | (٢٨) المصدر السابق: ٤٠. | (٣٩) إنها الصحوة: ٣٧. | |
| (١٨) الراية: ٣٣. | (٢٩) المصدر السابق: ٤٠. | (٤٠) إنها الصحوة: ١١٢. | |
| (١٩) الراية: ٣٤. | (٣٠) سموخاً أيها المآذن: ٤٠. | (٤١) المصدر نفسه: ٣٣. | |

لآلئ الشعر

د / عدنان النحوي *

يقول: تَزْنِجُلُ الْأَشْعَارُ تُشْهِدُهَا
دَعِ الْقَوَافِي وَالْأُوزَانَ إِنَّ بِهِنَّ
وَدَعِ بِلَاغَةَ أَجْدَادٍ وَقَدْ عَبَّرُوا
و«اغسل» كَلَامَكَ أَوْ «طَهَّرْهُ» إِنَّ بِهِ
وَأَثَرُكَ قَوَاعِدَهُمْ وَأَهْلِدْهُمْ دَعَائِمَهُمْ
واجْعَلْ مِنَ الشَّعْرِ الْغَزَا زَانَتْ دَوْرَهُمْ
حُرّاً يُعِيدُ أَسَاطِيرَ الْخِيَالِ بِهِ
يَهيمُ فِي كُلِّ وَادٍ مِنْ ضَلَالَتِهِ
كُلُّ الْقَدِيمِ قَدِيمٌ لَا يُبَالُ بِهِ
وَمَرْقٍ «الشَّكْلُ»، لَيْسَ «الشَّكْلُ» ذَا صَلَافٍ
كُلُّ الشَّيَاطِينِ جَالَتْ فِي مَنْزِلِهِ
فَكَمْ جَذَبَتْهَا بِالْوَانِ الْخِدَاعِ فَتَى

وَزْنَأً وَقَافِيَةً قِيداً وَإِغْسَاراً
رَجَعَ التَّرَاثُ وَأَغْلَلَا وَأَوْضَاراً
وَاتَّبَعَ هَوَاكَ وَمَا قَدْ شَاءَ وَاخْتَاراً
مِنَ السَّنِينَ، مِنَ التَّارِيخِ، إِبْغَاراً^(١)
وَاجْعَلْ «حَدِيثَكَ» بَيْنَ النَّاسِ أَشْرَاراً
لَا يَفْقَهُ الْقَوْمُ مَا قَدْ قِيلَ أَوْ دَاراً
وَيُتَشَبَّهِ بِضَلَالٍ حَيْثَا سَاراً
مَعَ الشَّيَاطِينِ إِبْغَالاً وَإِذْبَاراً
وَجَدَّ الْيَوْمَ أَهْوَاءً وَأَفْكَاراً
بِالَّذِينَ! أَتَشَبَّهَ نَابِئاً وَأَظْفَاراً^(٢)
تُغْرِي وَتُطْلِقُ أَغْوَاناً وَأَنْصَاراً
هَوَى يُرَدِّدُ أَغْذَاراً وَإِغْذَاراً

فَقُلْتُ: وَيَحْكَ! مَا قَدْ قُلْتَ إِنَّ بِهِ
الشَّعْرُ حُرّاً وَزَانَ وَقَافِيَةً
إِذَا تَجَرَّدَ مِنْهَا غَوَابٌ فِي ظَلَمٍ
كَأَنَّهُ هَدْرٌ لَمْ يُتَبَقِ أَصِيرَةٌ
وَقُطِّعَ النَّسَبُ الْمُبْرُورُ مِنْ رَحِمٍ
لَالِي الشَّعْرِ أَوْزَانٌ وَقَافِيَةٌ
الشَّعْرُ فَنُّ وَالْآفَافُ السَّنِينَ بَنَتْ
لِسَانُهُ لُغَةً الْقُرْآنِ آيَتُهَا
وَعَبَقْرِي عَطَاءُ الشَّعْرِ قَافِيَةٌ
الشَّعْرُ فَنُّ إِذَا مَا قُلْتُ أَنَّهُ انْتَفَضَتْ
فِي صُورَةٍ جَمَعَتْ أَلْوَانَهَا فَزَهَتْ
وَحَفَّتْ عِبْقَرِي الْقَنُّ يُطْلِقُهَا
كَأَنَّهُ اسْتَلْهَمَتْ مِنْ كُلِّ قَافِيَةٍ
وَعَطَّرَتْ بِالْقَوَافِي كُلِّ رَابِيَةٍ
وَأُطْلِقَتْ فِي سَمَاءِ الشَّعْرِ أَنْجُمُهَا
كَأَنَّهُ اسْتَسَمَتْ لِلشَّعْرِ سَاحَتُهُ
لَا يَزْكَبَنَّ عِبَابُ الْبَحْرِ غَيْرُ فَتَى
يُحَوِّضُهُ كُلُّ ذِي عَزْمٍ وَمَوْهَبَةٍ

مِنْ فِتْنَةِ الشَّرِّ أَوْ مِنْ وَقْدِهِ نَاراً
مِلءَ الْمِيَادِينَ دَفَاقاً وَزَخَّاراً
بَيْنَ الْمَجَاهِلِ إِجْدَاباً وَإِفْقَاراً
لَهُ مَعَ الشَّعْرِ، لَا صُحْباً وَلَا جَاراً
يَا وَيْلَ مَنْ قُطِّعَ الْأَرْحَامُ أَوْ جَاراً
تَشَعُّ مِنْ وَهَجِ الْإِبْنِ دَاعٍ أَنْوَاراً
لَالِي السُّوزِ أَوْ صَاعَتْ لَهُ الْغَارُ
إِعْجَازُهُ دَارُ إِجْلَالٍ وَإِكْبَارِ
تَجْرِي مَعَ «الْبَحْرِ» إِنْشَاداً وَإِنْحَاراً
مِنْكَ الْجَوَارِحُ تَحَنَّنَا وَتَذَكَّاراً
وَحَرَكْتَ مِنْ بَدِيعِ اللَّحْنِ أَوْتَاراً
رَوَاعِياً مِنْ غَنِيِّ الشَّعْرِ أَبْكَاراً
لَحْنًا تَمُوجُ بِهِ الْأَشْعَارُ أَشْعَاراً
وَزَيَّنْتَ بِالْقَوَافِي السَّاحَاحَ وَالْذَّارَ
لَالِيًا وَعَلَى الْآفَاقِ أَقْمَاراً
فَكَانَ بَحْرًا وَهَاجَ الْبَحْرِ إِغْصَاراً
جَلَدٌ يُشَقُّ مِنَ الْأَمْوَاجِ نَيَْاراً
وَيُتَشَبَّهِ الْعَاجِزُ الْمَضْطَرُّ إِذْبَاراً

(*) شاعر وناقد وكاتب إسلامي، من مؤلفاته: الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، الحداثة من منظور إبياني، وله عدد من الدواوين الشعرية، والملاحم.

(١) إشارة إلى قول الحداثيين في أوروبا وما نقله عنهم الحداثيون في بلادنا من أنه ضروري أن تغسل الكلمة ونظيرها مما علق بها من «غبار السنين».

(٢) الشكل هنا شكل الشعر الذي يحافظ على الوزن والقافية. وإشارة إلى قول بعضهم «لسنا متعبدين بالشكل».

يُفْصِلُ يَطْلُبُ مِنْ أَعْمَاقِهِ دُرّاً
هَذَا «الْبُحُورُ»، بُحُورُ الشَّعْرِ، وَاهِبَةٌ
وَلَنْ فِيهَا لِأَصْدَافِ أَنْصَانُهَا

وَيَعْتَلِي ظَهْرَهُ جُوداً وَإِصْرَاراً
لِلصَّادِقِينَ عُلَايَ زَهْرٍ وَأَعْيَاراً
لَأَلَى الشَّعْرِ أَوْزَانُهَا وَأَقْدَاراً

الشَّعْرُ بَابَانِ: بَابٌ مِنْ أَبَالَسَةِ
وَزُخْرُفٍ أَلَمْ تَزَلْ تَرْضَاهُ أَفِيدَةً
وَشَاعِرٌ مِنْ هَدَى الرَّحْمَنِ خَفَقَتْهُ
يَطُوفُ فِي الْكَوْنِ يَلْقَى مِنْ عَجَائِبِهِ
يَهْتَرِ مِنْ شَوْقِهِ لِلْحَقِّ، يُخْشَعُ فِي
وَيُطْلِقُ الشَّعْرَ أَنْدَاءَ مُضْمَخَةٍ
يَقْبِضُ فِيهِ الْجَنَى فِي ظِلِّ وَارِنَةٍ
هَذَا هُوَ الشَّعْرُ شِعْرُ الْمُؤْمِنِينَ
كَأَنَّهُ يَهْبُ الْأَخْدَاتُ خَفَقَتْهَا

يُوحُونَ بِالشَّعْرِ آثَاماً وَأَوْزَاراً
تَلْقَى بِهِ النَّارَ أَوْ تَلْقَى بِهِ الْعَارَ
مَعْنَى وَلَفْظاً وَأَشْوَاقاً وَإِثَاراً
أَيَّافُ تَفْتَحُ لَلْأَبَابِ أَشْفَاراً
جَلَالِهِ رَهَباً يَغْشَى وَأَذْكَاراً
كَالرَّوْضِ تَلْقَاهُ أَنْوَاراً وَأَثَاراً
تُعْجِرُ الْمَاءَ يَنْبُوعاً وَأَنْهَاراً
جَرَى يَرْوِي مَعَ الدَّهْرِ أَفْنَاناً وَأَخْبَاراً
يَجْرِي فَيَمُتُ الْأَشْيَاءَ وَأَبْصَاراً

حَتَّى إِذَا سَمِعَ الْأَشْمَارُ أَطْلُقَهَا
فَعَادَ عَنْ غَيِّهِ وَارْتَدَّ مِنْ عَجَبٍ
يَقُولُ هَذَا هُوَ الشَّعْرُ الْحَالُ جَرَى

رَوْضاً أَتَفْتَحُ أَوْزَاداً وَزَهْرَاراً
يُرْجِعُ الشَّعْرَ إِعْجَاباً وَإِكْبَاراً
عَطْرَ أَيْمُوجٍ وَسُخْرَ أَيْتَنَهُ دَاراً

مكتبة الرشد للنشر والتوزيع

والتي عودتكم دائماً على تقديم الجديد يسرها أن تضع بين أيديكم نخبة مختارة
من كتب التراث والمراجع العلمية والمقررات الجامعية أكثر من أربعين ألف
عنوان تحت سقف واحد

مكتبة الرشد: طريقك إلى عالم المعرفة

الرياض - طريق الحجاز - جنوب أسواق عتيقة

هاتف: ٤٥٨٣٧١٢ - ٤٥٩٣٤٥١ فاكس: ٤٥٧٣٣٨١

فرع القصيم - بريدة ت: ٣٢٤٢٢١٤ فاكس: ٣٢٤١٣٥٨

حمزة يعبر بحر المجاز

د / حسن الوراكلي *

تسلسل حمزة من فراشه الدافئ، في جوف ليل بارد الطقس، شديد الظلمة ... كانت الريح في الخارج تصر صريراً .. كالعواء!

وكان البرق يومض في أعماق قرية (أجدير) ...

يحبس حمزة دمه، وتند عنه آهة حرى، والمذيع يواصل تقديم الأخبار، (هذا وقد عاد الرئيس البوسني للمطالبة مرة أخرى، بموجب رفع حظر بيع الأسلحة للبوسنة والهرسك، حتى يتمكن البلد من صدّ العدوان الصربي والكرواتي على أراضيه، وعلى سكانها المسلمين. ومن جهة أخرى نقلت وكالة (فرانس بريس) عن مصدر موثوق في الحكومة الفرنسية أن الرئيس (ميتران) أكد في ندوة صحفية مساء أمس، بعد اختتام مؤتمر الدول الناطقة بالفرنسية كلياً أو جزئياً، ومن ضمنها بعض الدول (الإسلامية)، أن بلاده لن تتراجع عن موقفها في قضية الحظر على بيع الأسلحة للبوسنة والهرسك. وأوردت الوكالة أن الرئيس الفرنسي قال للصحفيين بالحرف «إننا لن نسمح بقيام دولة إسلامية في أوروبا».

تشعل شرايين حمزة بالحرائق، ويكبر في حناياه الإحساس بالمأساة المهولة، التي يعانيها مسلمو البوسنة والهرسك، وهم يواجهون حرب تصفية عرقية شرسة، يشنها عليهم، ليس الصرب والكروات وحدهم، وإنما الغرب الصليبي برمته، يستهدف بها اجتثاث الوجود العقدي والعرق والحضاري للمسلمين من أرض أوروبا..!

يدفع هذا الإحساس بدمعتين

صبراً يا شامة صبراً فإنه لا يضيعكما ... ثم ودعها والحزن يملأ جوانحه لفراقها، وفراق ولده الوحيد... ونزل الدرج، ومضى في الشارع الطويل المؤدي إلى محطة الحافلات.

ومع إسفار الصباح، انطلقت الحافلة، تطوي الطريق الجبلي الوعر، في اتجاه الشاطئ، الذي بات حمزة الليالي ذوات العدد يحلم بالعبور منه إلى العدو الأخرى! وعلى جانبي الطريق، كانت أشجار الصنوبر تفرش الأرض ببسط سندسية خضراء، تعبق الأجواء بروائحها العطرية...

يثبت حمزة في أذنيه، ساعتي راديو صغير، ثم يثبت مؤشره على محطة إذاعة (سرايفو)... تجحظ عيناه، ويعلو الحزن محياه، وهو يُنصت إلى المذيع يقول (دخلت القوات الصربية فجر اليوم ثلاث قرى في شرق البوسنة، وقتلت عدداً من سكانها المسلمين العزل، ودمرت بالمدفعية الثقيلة دورهم ومنازلهم...)

إنهم يستهدفون اجتثاث
الوجود العقدي للمسلمين
في أوروبا

توضاً حمزة ثم فرش السجادة، وقام طويلاً، وركع طويلاً، وسجد طويلاً، ودعا كثيراً ... فلما فرغ من صلاته خفّ إلى حجرة النوم واقترب من فراش ولده، يُلقِي عليه نظرة مفعمة بالحب، ثم انحنى يطبع في رفق، قبلاً حارة على وجنتيه، وشفاته تتمتان بالدعاء له ... استدار وخطا خطوتين، ثم تلفت ينظر إليه بعينين دامتتين .. كان الألم يعتصر قلبه اعتصاراً؛ لكنه، مع ذلك، لم ينل من جلده وثباته.. وهناك عند باب الشقة كانت زوجة (شامة) تقف شاحبة اللون، دامعة المقلتين.. كانت تدرك يقيناً أن ليس ثمة قوة يمكن أن تحول بين زوجها وبين ما اعتزمه؛ غير أنها في هذه اللحظات الحرجة، لم تجد ما تقول له، غير ما قالته له مرة وأخرى، تحاول به أن تثنيه عما عزم عليه؛ لكنه في كل مرة كان يرد على قولها برّد واحد لم يتغير، حتى حفظته عن ظهر قلب!

قالت له:

- وظيفتك يا حمزة .. وولدتك البراء، وأنا .. لمن تتركنا؟

فرد عليها في نبرات تنم عن إيمان عميق:

- لا الوظيفة.. ولا أنت، ولا الولد أحب إليّ من الله ورسوله .. إليك عني، فوالله لأمضين لأمر ربّي، وإليه أكلكما ...

(*) رئيس قسم الأدب العربي بكلية الآداب في تطوان، ويعمل الآن أستاذاً للدراسات العليا في جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

هذا بحر المجاز العظيم القدر

في الأبحر.. ملء البصر والفؤاد

مغلوبتين إلى عيني حمزة، ثم لا يملك نفسه، فيجشش بالبكاء... تلفت إليه رجل يجلس بالمقعد المحاذي لمقعد، وسأله في إشفاق باءٍ «ما بك يا ولدي؟» نظر إليه حمزة من خلال الدموع «كان الرجل في نحو الأربعين من عمره، على بسطة في الجسم، ومثلها، على ما يبدو من هندامه في المال... لم يرد علي سؤاله، وهمس إلى نفسه «يسألني الرجل عما بي.. آه، لو درى لعذر، ولو وعى وأدرك لبكى مثل بكائي، وربما أمر منه.. آه لو درى ما يحيق به وبأهله وقومه ويحرق بدينه من أخطار وكوارث...!»

تثب إلى مخيلة حمزة صور «من زُود الفعل عند بعض من كان يحضر دروسه الوعظية، في مسجد (حومة البلد) حين كان يحدثهم عن معاناة المسلمين على يد أعدائهم الصليبيين، في مختلف البقاع، وخاصة في أرض البوسنة والهرسك، ويُسَمِّعهم من أقاصيص المجاهدين في تاريخ المسلمين، وبين لهم فضل الجهاد، ويحثهم عليه بطريق غير مباشر، حين يقرأ عليهم قوله تعالى في نبرات نفاذة: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لَدُنْكَ ولياً وأجعل لنا من لَدُنْكَ نصيراً﴾ كان يلمح في وجوه بعضهم الكآبة والحزن، وكان يرى أعين بعضهم تفيض من الدمع، وكان يقرأ على ملاحظهم جميعاً ما يؤكد له تجاوبهم معه فيما يندبهم إليه، ويحثهم عليه، فلما دعاهم إلى التبرع لمساعدة المجاهدين لم يتخلف أحد منهم، حتى عم (جرDAQ) الحال، الذي لا يكاد يجد ما ينفق على نفسه وذويه، أبى إلا أن يكون من السباقين، إلى تقديم نصيبه في المساعدة والتبرع!

مرة أخرى تنهال على مسمعه أخبار إذاعة (سرايفو) كالحمم، توقد النار في السويداء، وتؤجج الجمر في الأطواء «لا تزال القوات الصربية تحاصر مدينة سرايفو وتشن عليها هجوماً عنيفاً بالدبابات والمدركات. ويذكر أن عدد الذين سقطوا من المسلمين في

الأيام الثلاثة الأخيرة خلال معارك المواجهة الضارية بينهم وبين الصرب ارتفع إلى خمسة آلاف وسبعمائة شخص! وفي (موسكو) صرح مسؤول رفيع المستوى أن روسيا ستستخدم حق (الفتو) في التصويت على مشروع رفع الحظر عن بيع الأسلحة لجمهورية البوسنة والهرسك».

يغرق حمزة في بحر لجي من الأحزان.. ويغرق كل ما حوله في متاهة بلا قرار..!

والخافلة لا تزال تغذ به السير.. تعاني الصعود في طريق مرتفع، ثم تتحدر منها لتعود إلى ارتقاء أخرى أشد وأنكى...

يحدث حمزة نفسه «هل قدر على المسلمين أن يلحقوا أحزانهم ويغصوا بأوجاعهم وهم راضون مطمئنون؟ هل نصب معين الشعور بالعزة والكرامة في نفوسهم، ورَضُوا أن يكونوا في الأذلين؟ أهو الحرص على الحياة والتثبث بأذيالها؟.. حقاً، ما تركت أمة الجهاد إلا ضربها الله بالذل. صدقت يا رسول الله، وأي ذل أخزى وأنكى من هذا الذي ضرب المسلمين حين رأوا سبيل الرشاد ولم يتخذوه سبيلاً!..»

فجأة تنقش سحابة الكآبة عن محيا حمزة، حين يرسل نظرة من نافذة الخافلة فتكتحل عيناه من بعيد، بشاطئ البحر الذي طالما حلم بالوقوف عنده، والعبور منه،..

تهلل وجهه والجراح جهرات في الحشايا،!

انشرح صدره والآلام أشواك في الحنايا،!

وما هي إلا لحظات حتى كان حمزة يقف على الشاطئ،، تمتلئ رثاه برائحة البحر، ويتبلل وجهه برذاذ الموج...

ساءل البحر..

ساءل شطه والثلج عما وعيا من

أخبار السلف للخلف...

استمع له وأنصت..

قال البحر: «من هنا كان عبورهم.. امتطوا صهواتي المصطخبية، وعبروا غير هيابين ولا وجلين... من هنا عبر (طريف) و(طارق) و(موسى) و(يوسف)... أسرجوا الأفراس وخاضوا بها لججي، أعزة على الكافرين، أذلة على المؤمنين.. هذه سبيلهم.. وفي سبيل الله ما لا قوا».

غمرت حمزة نشوة وفرحة..

هذا بحر المجاز العظيم القدر في

الأبحر.. نصب العين وملء البصر..

والسمع! إنه يصيخ فيسمع...

وإنه يحرق فيرى..

تتوالى المشاهد أمام ناظره..

ها هو ذا يرى (أبا زرة طريف بن مالك) تشرق أساريه بنور الإيمان وهو يتقدم سريته المجاهدة إلى الفلك، الذي سرعان ما يشق طريقه وسط موج المجاز المصطخب، في اتجاه العدو الأخرى...

وها هو ذا يرى (طارق بن زياد)، وعليه من ربّ سكينه ووقار، يتفقد جموع المجاهدين، الذين انتخبهم خليفة المسلمين، لحمل راية التوحيد إلى الجزيرة، من الأبطال المغاوير العرب والبربر.

وها هو ذا يرى الحشود المجاهدة، يستبقون إلى السفن، كما يستبق المصلون الصفوف الأولى في بيوت الله...

وها هو ذا يسمع أصوات التكبير والتهليل، ترتفع مدوية إلى عنان السماء، وتردد أصدائها مجلجلة تحت الماء.. وفوق الماء!

يتلفت يمينه ويتلفت يسرة...

صوت مهيب ينبعث من الأعماق.. لم يدر حمزة أمن أعماقه هو ينبعث الصوت أم من أعماق البحر:

قصة قصيرة

التوصيات. وكان من بينها التوصية بوجوب رفع الحظر عن بيع الأسلحة للبوسنة والهرسك...!) يهمس حمزة إلى نفسه (صبيحة في واد.. يا مسلمي (البوسنة والهرسك) إنكم أضيع من الأيتام!..

تلتهم الغيمة السوداء فوق المجاز بومضات برق خاطفة...

تلتهم الكآبة الرابضة على نفس حمزة بإشراقات أمنية.. كالنيزك!

تفجّر السماء فوق المجاز بهاء منسكب...

تفيض عينا حمزة بدمع غزير

ثم .. يشخص بجميع حواسه، وهو يحلم بالعبّ من تبع الحياة السرمدي!

في صباح اليوم التالي استغرب زملاء حمزة من تأخره، وكانوا يضربون به المثل في الانضباط والحرص على الحضور إلى الإدارة!

تقدم النهار..

انتصف النهار..

لم يأت حمزة..!

تداول زملاؤه (أمر) غيابه..

قال أحدهم: (لعله مسافر إلى القرية لحاجة طارئة مستعجلة).

وقال آخر: (لعله سافر في مهمة إدارية كلفه بها الرئيس الجديد).

وقال ثالثهم: (كيف يتغيّب فجأة من لم نعرف أنه تغيب عن العمل قط؟).

وقال الرابع: (لعل الرجل مريض.. لن يقعد به عن المجيء إلا المرض..)

وأدلى الجميع بدلوه في موضوع (غياب) حمزة، إلا خالداً فلم ينس بيت شفة.. لقد كان هو الوحيد الذي يعرف أن حمزة عبر المجاز في طريقة إلى البوسنة والهرسك!

حمزة يهجر بحر المجاز

ما انطوى عليه ضميره في قديم الأزال والآباد؟ هل أنصروا صُروح العدل التي أقاموا، وصروح المجد التي شادوا، رفيعة العماد، شاذخة البنيان كيف تمهات بمعاول الأحفاد، حين دبّ إليهم داء الأمم؟!«

يتنهّد حمزة من أعماقه .. وتتحدّر الدموع من مقلتيه..

وكمن يفيق من غيبوبة فيعتريه الدهش، مما تقع عليه عيناه من حوله طفق حمزة يفرك عينيه، ويطوف ببصره في جنبات البحر الهادئ الصامت، فلا تقع عيناه على شيء مما كان يراه قبل برهة على شاطئه، وفي عرضه، وعن سفح جبله...

«أين المراكب..؟ أين الأبطال..؟

أين أنتم يا فرسان المجاز..؟

يا طرف ..

يا طارق..

يا موسى..

يا يوسف..

هياً.. أقبلوا..

هياً.. هلموا..

هياً.. احضروا يا فرسان المجاز..

للمجاز!

قد آن أوان الأوبة.. والحضور!

طال الانتظار .. وعيل الصبر ونفذ!

المجاز، في غيابكم، موحش قفرا،

صامت حزين!

أين أنتم يا أجباءه..؟

أولم تسمعوا، مثلما سمع موجه

والأعماق، صرخات المستضعفين من النساء

والولدان والرجال الذين لا يستطيعون حيلة..؟

يقطع عليه جبل تفكيره صوت

المذيع يلوّك هذا الخبر (اختتم أمس مؤتمر

وزراء خارجية الدول الإسلامية أشغاله بقراءة

الجبل على هري

البصر بادي السكينة

كأنما يواصل الإطراق

«ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا عسى أن يكون الله متاً قد اشترى نفوساً أموالاً وأهلاً بجنة إذا ما اشتهدنا الشيء فيها تيسيرا ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذي كان أجدر»

وها هو ذا يرى السفن وقد انطلقت بجند الله تختال عائمة فوق لجج المجاز وفي إثرها أسراب الطير المحومة...

ثم ها هو ذا يرى ألسنة النار تلتهمها.. فإذا انقشعت سحائب الدخان تراءى له، مرة أخرى (طارق) متألق الأسارير يزجي جند الله إعداداً لخطّة (أرخص متاع فيها النفوس)!

ثم.. ها هو ذا يراهم ويسمعهم يُعاهدون ربهم، بين يدي قائدهم، ألا يغلّوا، ولا يغدروا، ولا يمثلوا، وألا يقتلوا الشيوخ الفانين، ولا الولدان، ولا أصحاب الصوامع، وألا يقطعوا شجراً ولا يخرّبوا عامراً... وألا يتحرفوا وألا يولوا الأدبار.. وأن يثبتوا ويصبروا في الغدوات والروحوات...

يهمس حمزة في نفسه، والدمع يبلل لحيته الكثة السوداء «أخلق بهم أن يطمئنوا غداً عند ربهم من كل محذورة».

يحجف دمه..

ويعاود النظر إلى الجبل، وهو منه على مرمى الحجر، فيترأى له بادي السكينة، كأنها يواصل الصمت والإطراق مفتكراً فيما مضى وغير، وفيما حلّ وحضراً يتنهّد حمزة، وترسم أمارات الحسرة والاكتئاب على وجهه.. «أين منك يا جبل الفتح؟ بل الفتحين هاتيك الأيام المتألقة من أيام الله المشهودة؟ أين منك هاتيك الحشود من المجاهدين الصادقين المحتسين، استرخصوا ما عزّ وغلا، في سبيل التمكين لكلمة الله، ورفع إصر الجاهلية وجورها عن خلقه، فلم يطؤوا منك يا جبل الفتح موطناً إلا كتب لهم به عمل صالح.. أين مثل آبائي هؤلاء؟ ماذا دهى أصلاب الرجال وأرحام النساء؟! لكنّ.. يا ترى. هل هُتكت لأبصار هؤلاء الفاتحين الميامين أسجاف الغيب، فتكشف لأبصارهم

الكنز المفقود^(١)

شعر: سعود بن حامد الصاعدي

أيها الليل أناجي فيك صمتاً وسكوناً
وأناجي فيك سرّاً بات مطوياً قروناً
فأعني بليالٍ عاشها قومي سنيناً
حيث ضاع المجد لما نام قومي وتولّى.

أيها الليل أحتضني بظلام أنت فيه
وأعتزل بي عن أناسٍ ما هم من عاشقيه
وأخذني فيك سرّاً لا تبخ بي لسفيه
ثمّ بالنور أضى لي وأجعل القلب محلاً.

أيها الليل كائي وأنا فيك أنادي
أرفع الصّوت بوادٍ مقفرٍ لا كلّ وادي
فإذا عندي مجيبٌ من صدى صوّتي يُنادي
فأجيني أيها الليل ودّع ياليل «كلاً».

الآنّي من أناسٍ هتكوا فيك الظلاماً
وأحالوا كلّ شيءٍ كان، عشقاً وغراماً
وأضاعوا فيك مجدّاً وصلاةً وقياماً
ولقد كنت فتياً ثم صرت اليوم كهلاً.

فيك أسرارٌ كدّر أيها الليل الحزينُ
وكما البرّ ضنينٌ أنت بالسرّ ضنينُ
إنما أنت صموتٌ وبك الكنز ثمينُ
وأرى الغوّاص يوماً ربّما قد رام حلاً.

(١) قيام الليل.